مُكرم بمجد الإسلام: اعتناق الإسلام والفتح في أوربا العثمانية

مارك ديفيد باير

أوكسفورد : طباعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٨، عدد الصفحات: ٣٣٢.

ISBN 9780195331752

بالاعتماد على المصادر الأرشيفية المعاصرة والمخطوطات، يكشف مارك باير عن أروع قصة في حياة السلطان محمد الرابع، فعلى الرغم من أن فترة حكمه كانت طويلة بشكل ملحوظ (١٦٤٨-١٦٨٧)؛ فإنه نُسي أو تم تصويره باستخفاف على أنه ضعيف وأحمق، وبهدف استرجاع التاريخ نجد أن موضوع الكتاب الرئيس هو التحول أو الاعتناق؛ فالمسلمون يتجهون نحو الممارسات الإسلامية الصحيحة، والمسيحيون واليهود يعتنقون الإسلام، ومن ثم فإن القارئ يتعرف في هذا الكتاب على حركة قاضي زادلي التي ظهرت لأول مرة على الساحة في عام ١٦٥٠م، وقد دعت الحركة إلى إحياء مظاهر الورع والتقوى، أي إنها دعت إلى عدم اتباع بدع الغير المشروعة.

يركز الكتاب على فترة حكم السلطان محمد الرابع، فالرواية تبدأ بتتويج محمد الرابع البالغ من العمر سبع سنوات في عام ١٦٤٨م سلطانا على الإمبراطورية العثمانية، بما في ذلك من تصوير حي لمدينة إسطنبول في ذلك الوقت، ثم ينتقل الكاتب إلى مناقشة "عقد الأزمات" الذي تلا تولي السلطان محمد الرابع لمقاليد الحكم؛ حيث فشلت الحكومة المركزية في مواجهة التحديات الخارجية والداخلية، وأثبتت عدم كفاءتها – ففي الفترة بين عامي ١٦٤٨ و ١٦٥٦ كانت هناك مجموعه مكونة من ١٢ وزيرا، ثم كانت الأزمة عندما أثيرت مسألة الشرعية، وبصفة خاصة: السلطة التي تتمتع بها السلطانة الأم، والتي تم النظر إليها على أنها مصدر جميع مشكلات الإمبراطورية.

وفي بداية الفصل الثالث، يناقش باير العوامل التي أسهمت في تحسن الأوضاع، فتم تقديم

حركة قاضي زادالي والتي تراجع تأثيرها على النخبة عندما أصبح محمد كوبرولو باشا وزيرا في عام ١٦٥٦، فخلال فترة ولايته، تمكن الوزير الكبير من قمع التمرد الداخلي، واستعاد الأراضي التي كانت قد فقدت من الإمبراطورية مرة أخرى، وبعد إعادة بناء وتوطيد الحكم العثماني، عادت المساجد التي تم تحويلها إلى كنائس إلى وضعها الأصلي كمساجد للمسلمين، ويري باير أن نجاح الوزير الأكبر جاء على حساب السلطان العثماني والأسرة، إلا أن السلطان محمد الرابع والسلطانة الوالدة في الستينيات من القرن السابع عشر عملا على تعزيز الأسرة والسلطنة، وركزا على مفاهيم التقوى.

ويوضح باير أن الدمار الذي سببته الحرائق الكبيرة في مدينة إسطنبول في عام ١٦٦٠، أتاح الفرصة لأسلمة المدينة، ففي ذلك الوقت كان ما يقرب من نصف سكان المدينة من غير المسلمين، ويرى باير أنه "في فترة الأزمة، فان أسلمة المناطق التي يقطنها المسيحيون واليهود في إسطنبول كان دليلا واضحا على سلطة الأسرة الحاكمة، والتي مثلتها خديجة توران"، ولم تقتصر عملية توجيه الخطاب الديني على النخبة فقط، "ففي الستينيات من القرن السابع عشر، ظهرت موجة جديدة من حركة قاضي زادالي التي انتشرت في جميع أنحاء المدينة.

وفي عام ١٦٦٣، انتقل محمد الرابع إلى أدرنة، "عاصمة المجاهد القديم"، في حين بقيت والدته السلطانة في مدينة إسطنبول، وفي ذلك الوقت، عين السلطان محمد الرابع مؤرخا للأحداث، وأقام علاقة وثيقة مع داعية حركة قاضي زادالي، فاني محمد أفندي، الذي وثق في السلطان، وكذلك في خديجة توران والوزير الكبير.

في البداية، استهدفت الإصلاحات الدينية الحركات الصوفية، "خاصة البكتاشيين، الخلوتين، والمولويين، الذين كان لهم تاريخ من العلاقات الوثيقة مع الجيش والأسرة الحاكمة"، ثم استهدفت، وبنجاح أقل استهلاك الكحول وبيعه.

ويكشف باير عن مشروعين لاعتناق الإسلام في النصف الثاني من عقد الستينيات من القرن السابع: فقد أسهم السلطان محمد الرابع في جعل الحاخام شبتاي، زعيم الحركة اليهودية المسيحية؛ يعتنق الإسلام في عام ١٦٦٥م، ونجحت خديجة توران في جعل أطباء القصر اليهود يعتنقون الإسلام، وذلك باشتراطها أن يعتنقوا الإسلام ليتم توظيفهم في القصر.

أما الفصل السابع فيحلل كيف أن كتابات المؤرخين العثمانيين صورت السلطان محمد الرابع بعد انتقاله إلى أدرنة على أنه سلطان قوي، وورع، وبطل، ومحارب (غازي)، استعاد السلطة،

واستطاع بمساعدة واعظه أن ينجح في جعل أشخاص يعتنقون الإسلام في أوربا العثمانية"، كما يركز النقاش على فتح كانديا (كريت) في عام ١٦٦٩، وعملية اعتناق الإسلام التي تلت ذلك الفتح.

ويناقش الفصل الثامن الحملات العسكرية في أوربا في السبيعينيات من القرن السابع عشر، والتي قادها السلطان شخصيا، ويوضح باير أن هذه الانتصارات مكنت السلطان محمد الرابع من توسيع حدود الإمبراطورية، كما تحولت في عهده أجراس الكنائس إلى مآذن، وتم ختان المسيحيين كختان المسلمين، وهذا بدوره رفع من الروح المعنوية للمسلمين في عاصمة الإمبراطورية".

ويستكشف الفصل التاسع العلاقة المتبادلة بين الصيد والتحول من دين إلى دين آخر، فيقال إن رحلات صيد السلطان محمد الرابع المتكررة "أظهرت شجاعته، ورجولته، ودربته على الحرب"، كما أنها أتاحت له الفرصة ليتواصل مع رعاياه، خصوصا خلال "الرحلات" فقد أجبر السلطان العديد من القرويين المحليين على مشاركته في الصيد، هوايته المفضلة، ثم أسفرت لقاءات مئات الفلاحين مع السلطان، عن اعتناقهم الإسلام، ويشير باير إلى أن المؤرخين أغفلوا أن حاشية السلطان التي صحبته في أسفاره كانت بمنزلة صانع اعتناق الإسلام.

وتحت عنوان: "الجهاد النهائي الفاشل"، يروي باير حصار فيينا (عام ١٦٨٣) كنقطة النهاية التي توجت التطلعات النابعة من مفهوم السلطان الغازي، ويؤكد أنه على الرغم من النذر والطوالع السلبية، وعلى الرغم من خيار العودة من دون فقدان ماء الوجه؛ فقد استمرت الحملة العسكرية في طريقها وانتهت بهزيمة مدمرة، وتركز مناقشة فترة ما بعد الهزيمة على التفسيرات المتغيرة، وبالفعل بعد جيل من وفاة السلطان محمد الرابع (١٦٩٣) لم يعد يُنظر إليه كسلطان فاتح وغازي"، "وقد اختفت من السجلات التاريخية، بعد فترة حكمه، أدواره في الفتوحات العسكرية لأراضي الكفار، وما قام به من جعل المسيحيين واليهود يعتنقون الإسلام، فقد تم محو عهده، ولم يعد يُذكر منه سوى الفشل الذريع في حصار فيينا

ويختتم الكتاب بملاحظات عامة على "الحكام المسلمين وعملية التحول من دين إلى الإسلام"، كما يقدم لمحة عامة عن كيفية تذكر بعض الجهات الفاعلة الرئيسة الأخرى في القصة.

أورسولا وكويك
جامعة بن غوريون في النقب